العرب في التاريخ

١ – الى ارض كلدية بعد عربة

لا بدَّ ان ركوب ثبج الامواج ساقهم الى ارض كلدية ، الناشئة حديثاً من تلاطم الماء ، كما ان عشائر من اولئك العرب بلغوا اليها عن طريق البر . وما كادت اقدامهم تقرّ فيها حتى انسوا بها ، اذ شاهدوا فيها جنات تتدفق في جنباتها الانهار ، وتتغنى على اغصانها الاطيار ، ورأوا في اهلها من الهمة والسعي للحراثة والزراعة ، ما لم يشهد نظيرهُ امثالهم في البلاد التي غادروها ، وكذلك رأوا فيها اناساً مدرّبين على الصيد في البرّ والبحر ، فامتزجوا بهم امتزاج الماء بالماء ، وتزوجوا من بناتهم ، كما زوَّجوهم بناتهم ، وساروا على اخلاقهم ، واتخذوا عاداتهم ، وشاركوا بعضهم بعضاً في المعارف والاختبارات . وعلى هذا الوجه نشأت في العراق بجوار عربة ، امة تعرف بالشمرية الاكّدية ، اذ التاريخ المدوَّن على الصفائح المشوية ، ينبئنا بوجودها منذ القدم قبل الالف الرابع من زمن الميلاد

لا جرم ان الوحدة اللغوية لم تخلق عفواً ، وانما كانت وليدة صراع هائل بين العنصرين ، لان بناء تلك الامصار لم يأذنوا للساميين الجدد بالاقامة ، الاَّ لانهم كانوا في حالة هي اقرب الى الوحشية والهمجية منها الى الحضارة الحقيقية ، ثم لما استتب الامر بدأ النزاع بين الدول الصغرى التي كانت يومئذٍ في كيش (هي اليوم تل الاحيمر) ، وأُرُك (وتعرف بقاياها اليوم بالوركاء وكذلك عرفت في عهد العباسيين) ، وأُور (واسم آثارها في هذا العهد المقيَّد) ، ولجش (هي تلّو في هذا الزمن) ، وأدّد ، وماري او مارو (ويسميها الاعراب تل العقارب) ، وغيرها من الامارات الجمة التي لم تعرف اسماؤها الى هذا اليوم ، وان عُرف وجودها ، وقد حاربت بعضها بعضاً منذ انبلاج فجر التاريخ . وكان بعض هذه الدُّويلات شمرية ، واخرى اكدية ، ومنها مستقلة كعيلم

وقد نقلت الينا اقدم المدوَّنات التاريخية ، انهُ كان في كلدية كما في عيلم منذ ذلك العهد ، ممالك تتقوَّم من الافدان[1] ولقد مرَّت قرون قبل ان تكون على النظام المذكور

---

(١) المراد بالافدان ما يسميه بعضهم بالاقطاعات . والافدان جمع فدن وهو القصر بني في ارض واسعة هي ملك رجل واحد ، هو رأس بيت كبير يرجع في أمره الى اكبر منه ينتمي اليه ليعضده في وقت نائبات الحرب . وباسم هذا القصر سميت الارض والنظام المتبع في تدبيره .

ولما هبط المستعمرون السمريون كلدية ، كانت ارض فُرْحات الرافدين (دجلة والفرات) جزراً حديثة الخروج من بطن المياه ، كثيرة الردغ والطحلة ، لا تبدو للعين الأ عند الجزر ، وهي محاطة بالغدران والمستنقعات . فعلى تلك الارض المتجزئة مشاويهم ، وهم قبائل وبطون وافخاذ ، ثم تضامّت بعضها الى بعض عند دفع الملمات والرزايا عنها ، ولاسيما عند دفع غزوات العدى عنها ، فنشأ من هذا التآلف والتضامن ما تسميه امارات ، ثم ان المتمكنات من الارضين اخذت تتسع بتقلص المياه عن وجهها ، فاضطر الاهلون الى اتخاذ الافدان على ما نراها منظمة في عهد سرجون الأجدّ (اي اكّد) ونرم سين (نَرَم سين)

ولما جاء حمُرَبي (٢) ، وحّد الامة ، ثم ما زالت الامارة تنحو نحو القوة المطلقة في الواحد الفرد الى ان استطى غارب العرش من جاء بعد سرجون الاقدم ببضعة الوف من السنين ، فكان قوة لاشورية

والكلمة العربية قديمة العهد وقد وردت في كتب اللغة وهي تعريب feudum او feodum التي نقلت الى الانكليزية والفرنسية بصورة fief وعرفت تلك الامارة بالفدية وبالانكليزية feudalism او feodality وبالفرنسية feodalité

واما كلمة الاقطاعات فحديثة الوضع فضلا عن انها من سوء النقل ومن الطول في الكلام . فقولك الفدية كقولك الجمهورية والملكية بخلاف الاقطاعات فانك مضطر الى ان تقول عهد الاقطاعات او امارة الاقطاعات لتؤدي الفكرة الموجودة في الفدية

واما سوء النقل للمعنى فهو واضح من معنى الاقطاع عند اللغويين وعند الفقهاء . ففي التاج من الاقطاع اقطعه قطيعة اي طائفة من ارض للخراج . والاقطاع يكون تمليكا ويكون غير تمليك . قال ابن الاثير : والقطائع انما تجوز في البلاد التي لاملك لاحد فيها ولا عمارة لاحد فيقطع الامام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه و باستخراج عين منه او بتحجير عليه لبناء فيه اه . (هذه العبارة المنقولة عن نهاية ابن الاثير ليست في النسخة المطبوعة في مصر في المطبعة العثمانية بسوق الزلط في سنة ١٣١١) . فالاقطاع هو غير الفدن الذي تقدم بيانه

(٢) يقول علماء المسماريات على ما سمعته من لسان جماعة منهم : اذا كتب اسم حمورابي بحرف عربية فيجب ان يكون هكذا : حمرب اي بفتح الحاء وضم الميم المشددة يليها راء مفتوحة وفي الاخر باء موحدة تحتية مشددة مكسورة وليس هناك واو وياء كما يكتبه بعض كتاب العصر من حملة اقلام العرب . وذلك لان الميم المشددة المضمومة لا يليها حرف ممدود . وكذلك الباء المكسورة المشددة لا يليها ياء ممدودة انما هي حركة . وان قيل لنا : الخطأ المشهور خير من الصحيح المهجور . قلنا : ان هذا المثل قيل عن اغلاط العربية المنقولة ايضا عن عهد الجاهلية لا غير . والا قلنا لك : اكتب كل كلامك باللغة العامية فان اغلاطها المشهورة ادور على الالسنة من كلم اللغة الفصيحة المهجورة . هذا

فتح أساميين لكنه لم يكن عن بطر او أشر ، انما كان عن دافع دفعهم اليه احصات الطبيعة من يبوسة ارض ، وغيض مياه ، وقلة رزق ، فاضطروا الى ما اضطروا اليه

وهذه الفتوح من الامور الجليلة الشأن في التاريخ ، لان نتائجها سادت في سير العالم مدة الوف من السنين

لكن ، في اي عهد وقعت هذه الفتوحات ، فتوحات السلم ؟ وفي كم من القرون تمت ؟ او لعل السؤال يصاغ على هذا الوجه : في كم من السنين حصلت تلك الفتوحات ؟ — ذلكم امر مجهول اليوم . بيد اننا نعلم ان ذرة هذه الحركة تتغلغل في القدم ، لان الموجة البشرية التي انتشرت في كلدية ، فاتحدت الى ديار مصر ، فنقلت اليها الحضارة والعمران كانت — ولاشك في ذلك — شعوبة أكدية ، اذ لما نزل الآموريون في ديار النيل كانوا على جانب عظيم من التمدن . فلا ريب اذن في ان التمدن المصري عراقي الاصل ، وان كانت الآراء ، قبل نحو اربعين سنة مخالفة لما اقرّهُ اليوم العلماء بفضل ما وجدوهُ من الآثار المصرّحة بهذا المعتقد (٣)

١١ منعزل عربة بعد قرارها

بعد ان فرّت عربة قرارها الاخير ، ظهرت لك ، — وهي بين آسية وافريقية — كالوليدة التي يمسك بيدها الواحدة ابوها ، وبيدها الثانية امها ، وهي بينهما كأنها معلقة بهما . و بالحقيقة هي وليدة البرين العظيمين ، فهي بنت الوالد الاسود (بر افريقية) بهيئة جبالها ، ومنجبات هضابها ، وطراوة هوائها ونواجئه . وامها آسية بمخدرات اوديتها والتصاق جانب منها قدرة الف كيلو متر بستي الفرات وهو المعروف بالطف عند العرب

وعربة وان تزوجت بين يدي والديها جائية ذاهبة عهداً طويلاً ، ألا انك تراها اليوم قائمة بنفسها ، سائرة وحدها ، مستقلة بامرها ، حتى انها اصبحت عالماً حيّاً ممتازاً بمزاياهُ ، وحياتها لا تشبه حياة ابيها ولا حياة امها

فضلاً عن انه يجب على الانسان ان يعيد ان اخطأ ، يسير في سبيله كلما اهتدى اليه او رأى نفسه بعيداً عنه وان كان سيره في الضلال منذ امد بعيد . فقول بعضهم « الخطأ المشهور خير من الصحيح المهجور » حديث خرافة اذا أطلق على غير الخطإ الوارد في عهد الجاهلية

ومعنى حرب « المدافع عن القبائل او الجماعات »

(٣) اغلب ما جا في الفصول ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ و ١٠ معربة عن اللغة جاك دي مرغان كما اشرنا اليه مراراً

اخترقت الطرقُ التاريخية بلاد الله كلها ، لكنها لم تخترق عربة ، بل نكبت عنها ، ولما اضطر العرب الى الخروج من ديارهم ، اختطوا لنفوسهم سبلاً في الفلوات ، لم يمكن لغيرهم ان يسيروا فيها ، لانها كانت تعمى عليهم ، لانهيال الرمال فيها واستوائها مع ما يجاورها . ولهذا بقيت تلك الجزيرة مجهولة عند جميع الامم من فاتحة وغازية وهادئة ولم يعرفوا منها الاَّ سواحلها . ولهذا لم تسمع باحد الغزاة جاز قلبها ، او اخترق لبّتها ، حتى في العهد القديم من تاريخها

اما الرومان فانهم زحفوا اليها مرة واحدة لا غير ، وذلك في سنة ٢٢ ق. م ، وكان لواء جيشهم معقوداً لاليوس غالس Aellius Gallus ، ولم يوغلوا في تلك الربوع ، انما تقدموا في مسافة ضيقة النطاق ، واقعة في الجنوب الغربي ، في الديار التي يسميها بطليموس : « عربة السعيدة » (او جزيرة العرب السعيدة ، والمراد بها بعض بلاد اليمن وشيء من الحجاز) ، ثم عادوا ادراجهم لوباء فشا بينهم ، وبطليموس لم يعلم عن طرق عربة الاَّ ما نقلهُ اليه ارباب القوافل واصحاب التجارات ، الذين كانوا يترددون الى الثغور البحرية

ومنذ الهجرة الى وسط القرن الاخير ، لم يعلم الافرنج من اخبار قلب ديار العرب ، الاَّ ما كان ينقلهُ او يرويهِ لهم حجاج مكة . والترك انفسهم — وان كان لقب سلطانهم « امير المؤمنين » — لم يحتلوا الاَّ منطقة ضيقة من ساحلها ، واقعة في غربيها على طول البحر الاحمر ، وفي الشرق على شاطئ خليج فارس

اما الذين وُفقوا في سعيهم فكانوا المصريين ، فان جيوشهم بلغت ربوع الوهابيين في قلب الجزيرة ، وذلك من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨٣٠ ، وان كان قائدهم تابعاً لظل سلطان تركية . ومع هذا كلهِ لم يطأوا جنوبي الجزيرة

ولهذا نقول : ما من بلادٍ قلَّ فيها ، بل خلا فيها ، ذكر اسماء الفاتحين مثل عربة ، ففيها مئات ومئات من القبائل والبطون لم تسمع بجوار خيامها صوت وقع حوافر الخيل ، لا في ولا من دبَّ ودرج منها

١٢ مذاهب عربة

ان صدق كلام اغلب العلماء ان عربة بقيت مقفلة في وجوه الغزاة ، غزاة البلاد والعلم والتاريخ ، فان اهلها لم يبقوا محصورين فيها . نعم ، ان الفلوات التي تطوّقها تحول دون اقتحام الفاتحين لها ، الاَّ ان سكانها ، مودون ايصال السير بالسري للسي والغرب

في المباني والقناطر، وانقضوا على مواقع الآبار والصهاريج والقلات، لا يصعب عليهم الخروج من صحاريهم والضرب في أباعد البلاد وبطونها

او غاب عنك أبناء اقتسوس وهبوطهم مدائن النيل؟ — ام جهلت ما دوّن التاريخ من خروج ابناء اولئك الرعاة المغاوير من رمالهم وبيدائهم في شمالي البلاد وجنوبيها، في شرقيها وغربيها، وفي تدوخ الكبير والصغير، وتكتسح في وجهها اللدّ والجلس؟ — فلقد امتدّ ظل سطوة العرب امتداداً شمل ديار مصر وسورية والعراق وفارس وديار البربر وافريقية وصقلية واسبانية وسواحل بحر الهند، فكانت ممالكهم من اوسع ما عرف الى عهدهم

ولم يكن الدين وحده السائق الى تلك الفتوحات، فان اممًا كثيرة كانت تئن في السكوت والظلمات من جور حكامها، فلاذت بالعرب، واستدعتهم، ورحّبت بهم، وفتحت لهم كنوزها وهداياها. — يشهد على ذلك انها لما رأت انها غابت في ما اطفأه من وجودهم بين ظهرانيها، انقلبت عليهم، ثم انفصلت عنهم غيظًا بعد شيء، حتى عاد اغلب البلاد المفتوحة الى اصحابها الاولين، او الى اناس آخرين كما تشاهد الامر في هذا العهد

١٣ سكانها واقسامهم

قال م: ج. دي خوي الهولندي M. J. de Goeje في مجلة الاسلام ما هذا معرّبهُ «لنسابي العرب رأيٌ، وهو: جميع العرب يمتّون بالنسب الى ابرهيم الخليل. فاهل الشمال منهم يتصلون به باسحميل، والذين في الجنوب بيقشان، ويظن انهُ المسمى عندهم قحطان. وهذا الرأي مستند الى التوراة. وهناك رأي آخر يجتمع بالرأي المتقدم ذكرهُ وهو: ان (العرب العاربة) وهم العرب المنقرضون او البائدون اي عاد وثمود وعمليق (عمالق) الى غيرهم هم قبائل نازلة من قحطان. و(العرب المتعرّبة او المستعربة) هم من ذرية اسحميل. والنسّابون يسمون (عربًا خُلّصًا او صميمًا) اهل البادية الذين ينطقون بعربية فصيحة. وكذا (اعراب او عُربان) لا تقع الاّ عليهم من باب التغليب. ويسمّون ايضًا (بدوًا او بادية) لسكناهم ضاحية البلاد، بخلاف الحضر فانهم يأوون الى البيوت والمدور. ومن اسماء اهل البادية: (اهل الوبر) لاتخاذ مساكنهم من الوبر ويقابلهم (اهل المدر) او (اهل للطين) وهم الذين يتخذون مساكنهم من الطين

وقسمة العرب الى عرب شمال وعرب جنوب هو امر لاخلاف فيه. وتعرف القبائل

الجنوبية باليمانية ، كما تسمي قبائل الشمال نزارية او معدية . وكان يُرى — حتى في عهد النبيّ — في الجانب الشمالي ، قبائل كثيرة يمانية انتشت تلك الرقعة منذ عهد بعيد ، كما كان يرى في الصقع الجنوبي قبائل نزارية الجذم وتنسب مأثورات العرب ظعن اليمانيين الى الشمال الى انشاق سد مأرب . ولا يمكننا ان نعين تعييناً دقيقاً ما في ذلك الانتجار من الحقيقة التاريخية ان استندنا الى ما يذكره لنا مؤرخو العرب . وعلى كل حال كان ثمّ دوافع اخرى غير ذياك السبب ، اذ دفع غير هجرة واحدة . فان طبيعة البلاد تسوق الجالين العرب الى ارتياد الديار ارتياداً منتظماً فالصحراء التي تطوق عربة الوسطى شمالاً وشرقاً وجنوباً تلبس حلة موشّاة وشياً بديعاً في الاشهر الثلاثة التي تلي فصل الامطار فينشجع مجامدها الناس باموالهم ، فيطوون فيها اياماً كلها ربيع ونعيم ورفاهية . إذ ينتقلون اليها ومعهم كل الادوات اللازمة والاعمال التي يحتاج اليها ، ولا يعودون الى مواطنهم التي غادروها الاّ بعد ان يكون التصوّح قد اخذ يبدو في مرابعهم . وان لم يوجد ما ينشجع في الصقع الذي أمّوهُ ، تذهب بعض الافخاذ الى ديار اخرى تضطرهم الاحوال الى انشاء مُقام جديد لهم فيها

وسكان البادية كثيرو الولد ، وحين توافق الاحوال اهل البيت الواحد ، فقد يغدو في زمن وجيز بالنسبة الى غيره من بيوت الحضر ، فخذا او بطناً يقام لهُ و يقعد . فينشأ حتماً من هذا الازدحام نزوح القبائل المجاورة . ولما كان مرتاد الجنوب ضيق الحاشية ، قائماً بين ديار الساحل والصحراء ، يضطر غالباً بدو الجنوب الى ارتياد ربوع غير ربوعهم ، ولاسيما لانهم اوفر عدداً من اهل الشمال من ذلك ان قبيلة طيّ القوية اليمانية افتتحت لها ارضاً في شمالي نجد قبل النبيّ بقرون عديدة . واستوطنت قضاعة جنوبي سورية وشرقيها . ولم يقع ما يخالف هذا الحادث (اي نزوح اهل الشمال الى الجنوب) الاّ نادراً على وجه غير مألوف

ولعل النزاع القائم بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال ناشئ في اول الامر من ان القبائل الشمالية تعتبر القبائل الاخرى دخيلة ، لان قبائل ديار الجنوب ادخلت في لغتها اصولاً اعجمية جمة عند احتكاكها بسكان البلاد الجنوبية (كاهل اليمن وحضرموت وعمان) ، فكانت نُغضٌ من لغة اهل الشمال . ثم امتدّ شقّ هذا الخلاف واشتدّ حتى نشأ عنهُ بغض الجنس ، ولاسيما حين زادهُ الانصار ، وهم من يثرب ومن عنصر يمان ،

فقابلهُ بمثلهِ المكيون وهم من قريش إذ كانوا من نزار . فكان هذا النزاع مضيعة لسلطان العرب ، ولم يزُل من النفوس حتى عهدنا هذا . اه كلام دي خوي

وقد سُئِل الاب استاس ماري الكرملي عن صحة هذا النسب فقال : « اني اشك فيهِ ، لاسباب ، منها : ان العلماء اكتشفوا في عربة آثاراً تدل على قدم وجود الانسان قبل ابراهيم بثلاث مئات من السنين . — ٢ وجدت مدوّنات تاريخية تذكر بعض اقسام من عربة واهلها قبل عهد ابرهيم ففي رقم بابلية قبل الفي سنة من ميلاد المسيح ورد ذكر ملك اسمهُ معَنّ (وقد ذكر بعض الاحيان بجعل صورتهِ التامة مُوَدّتو بحذف العين من صدر اسمهِ) صاحب معَان (بغين معجمة) وهي عربة الشرقية . واهل البحث يرون ان معان هي تصحيف للاسم العربي القديم معان (بالعين المهملة) التي نقلت بعد ذلك الى صورة معين فان كان قد ورد ذكر هذه المملكة قبل الفي سنة قبل المسيح ، فلا جرم انها لم تنشأ عفواً ، بل مضى عليها مئات من السنين قبل ان تبرز للناس بهيئة مملكة . — ٣ وبجانب معان يذكر اسم بلاد اخرى تعرف (ملوخ وزان صبور) ، ويظن انها تشمل عربة الوسطى والقسم الشمالي الغربي . وكان الشمريون يجلبون من (ملوخ) كما كانوا يجلبون من معان شيئاً كثيراً من نتاج تلك البلاد لبناء هياكلهم (كالخشب والحجر والمعدن) . وقد ذكر بين من جلب هذه الاشياء جُوديا ملك سرجُلّة ، في نحو سنة ٢٣٥٠ ق م . والحال اننا نعلم ان ابرهيم الخليل وُلد في نحو سنة ٢٣١٦ ق م ، اذن كان عمر الخليل ١٥ سنة حين طلب الملك جوديا تلك المواد من اهل ديار العرب

فهذه شهادة نفيسة واضحة على ان الجزيرة كانت آهلة بالسكان قبل ان يذهب اليها ابناء ابرهيم . فتلك نتيجة لا سبيل الى انكارها بعد انباء التاريخ . ولذا نعتقد ان عزو الناطقين بالضاد جميعهم الى صلب ابرهيم الخليل هو من مختلقات اليهود ، تقرباً من العرب ، ولا يمكن لابناء العصر الحالي ان يتمسكوا بهذا الرأي الفائل البالي »

ثم قال لي الاب : « وهذا ليس رأيي الخاص انما هو رأي جميع العلماء والنسّابين المحدثين . وما عليك الاّ ان تطالع ما كتبهُ المؤرخ كايتان هوار الفرنسي لتقف على خلاصة ما جاء في هذا المعنى » اه

بغداد فهر الجابري